أوليات النقد الأدبي في العصر الجاهلي

لم يصل إلينا من الشعر الجاهلي إلا أقله، ذلك لأن المحاولات الأولى لقرض الشعر مجهولة، ولم يصل إلينا الشعر الجاهلي إلا بعد أن نضج واستوى، ولذلك يقول أبو عمرو بن العلاء: "ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير" هذه المقولة تنسحب على النقد الأدبي أيضا في العصر الجاهلي، إذ إن المحاولات النقدية الأولى ضاعت في حملة ماضاع من علوم العرب قبيل الإسلام، وإذا كنا لا نعرف الشعر العربي إلا متقنا محكما قبيل الإسلام فإننا لانعرف النقد إلا في ذلك العهد. ففي أواخر العصر الجاهلي، كثرت أسواق العرب التي يجتمع فيها الناس من قبائل عدة، وكثرت المجالس الأدبية التي يتذاكرون فيها الشعر، وكثر تلاقي الشعراء بأفنية الملوك.

ويمكن أن نحصر الشواهد النقدية التي وصلتنا من هذا العصر في خمسة أنواع من النقد:

1- ألقاب الشعراء: حيث كانت العرب كثيرا ما تلقب الشعراء تنويها بهم وإعظاما لهم، فقد لقبوا النمر بن تولب "الكيس" لجودة شعره، وسموا طفيل الغنوي: طفيل الخيل، لشدة وصفه إياها، ولقبوا عامر بن الطفيل "المحبر" لحسن شعره، ولقبوا زياد بن معاوية بالنابغة لنبوغه في الشعر، ولقبوا الأعشى بسناجة العرب ... إلخ.

2- ألقاب القصائد: إذ كثيرا ماكانت العرب تعجب بقصيدة ما لشاعر من الشعراء فتطلق عليها إسما ما، تمييزا لها على باقي القصائد لجودتها، فقالوا:

إن قصيدة سويد بن أبي كاهل التي مطلعها:

بسطت رابعة الحبل لنا فوصلنا الحبل منها ما انقطع

من خير القصائد، وسمّوها "اليتيمة"، وقالو في قصيدة حسان:

لله درّ عصابة نادمتهم يوما بحلق في الزمان الأوّل

بأنها من خير القصائد ودعوها "البتارة" (التي تبرت المدائح).

ويقول حماد الراوية: إنّ العرب كانت تعرض شعرها على قريش، فما قبلوه منها كان مقبولا، ومارادوه منها كان مردودًا، فقدم عليهم علقمة بن عبدة فأنشدهم قصيدته التي مطلعها:

هل ما عَلِمْتَ وما اسْتَودِعْتَ مَكْتُومُ أَم حَبْلُها إِذْ نَأَتْكَ اليومَ مَصْرُومُ

فقالوا: هذه سمط الدهر، ثم عاد إليه العام المقبل فأنشدهم:

طَحَا بِكَ قَلْبٌ في الحِسَانِ طَرُوبُ بُعَيْدَ الشَّبَابِ عَصْرَ حانَ مَشِيبُ

فقالوا: هاتان سمطا الدهر. ومن هذا النوع أيضا اختيارهم القصائد المشهورة التي سموها "المعلقات" إن صّحت هذه الرواية.

3- المفاضلة بين شاعرين أو مجموعة من الشعراء: من ذلك تنازع كل من امرىء القيس، وعلقمة بن عبدة في الشعر أيهما أشعر؟ فقال كل واحد منهما: أنا أشعر منك، فقال علقمة، قد رضيت بامرأتك أم جندب حكمًا بيني وبينك فحكماها، فقالت أم جندب لهما، قولا شعرًا تصفان فيه فرسيكما على قافية واحدة وروي واحد، فقال امرؤ القيس:

خليليّ مرّا بي على أم جندب لنقضي حاجات الفؤاد المعذب

وقال علقمة:

ذهبت من الهجران في غير مذهب ولم يك حقا كل هذا التجنب

فأنشداها القصيدتين، فقالت لامرء القيس: علقمة أشعر منك، قال: وكيف؟ قالت: لأنك قلت:

فللسوط ألهوب وللساق درّة وللزّجر منه وقع أخرج مهذب

فجهدت فرسك بسوطك في زجرك، فأتعبته بساقك، وقال علقمة:

فأدركهن ثانيا من عنانه ومرّ كمرّ الرائح المتحلب

الرائح: السحاب ، المتحلب: المتساقط

فأدرك فرسه ثانيا من عنانه، ولم يضربه ولم يتعبه.

فقال: ماهو بأشعر مني، فطلقها، فخلف عليها علقمة، فسمّي الفحل.

ومن ضروب المفاضلة بين مجموعة من الشعراء أن الزبرقان بن بدر وعمرو الأهتم وعبدة بن الطبيب والمخبل السعدي تحاكموا إلى ربيعة بن حذار الأسدي أنهم أشعر، وكان من عقلاء العرب وحكائهم، فقال للزبرقان: "أمّا أنت ياعمر فإنّ شعرك كبرود حبر يتلألأ فيها البصر، فكلما أعيد فيها النظر نقص البصر، وأما أنت ياعبدة فإنّ

شعرك كمزادة أحكم فرزها، فلا تقطر ولا تمطر، وأمّا أنت يامخبل فإنّ شعرك قصرّ عن شعرهم، وارتفع عن شعر غيرهم"

وأحكام ربيعة هذه كلها غامضة، فهي لاتّخلق وراءها شيءا دقيقا واضحًا.

4- النقد اللغوي: من ذلك مايروى عن طرفة من أنّه استمع وهو لا يزال غلامًا إلى المسيب بن علس ينشد إحدى قصائده، وقد ألمّ فيها بوصف بعيرة على هذا النحو:

وقد أتناسى الهمّ عند اذّكاره بناج عليه الصّيعرية مكدم

والصيعرية سمة خاصة بالنوق لا بالجمال تكون في أعناقهم، فقال طرفة: التسنوق الجمل.

5- النقد المعنوي: من ذلك أنّ حسان بن ثابت أنشد النابغة قصديته التي يقول فيها:

لَنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلمَعنَ بِالضُحى وَأَسيافُنا يَقطُرنَ مِن نَجدَةٍ دَما

وَلَدنا بَني العَنقاءِ وَابني مُحَــرِّقٍ فَأَكرِم بِنا خالاً وَأَكرِم بِنا اِبنَما

فقال له النابغة: "أنت شاعر، ولكنك أقللت جفانك، وأسيافك، وفخرت بمن ولدت، ولم تفخر بمن ولدك.

- العنقاء: هو ثعلبة جد الأوس والخزرج.

- المحرق: الحارث بن جبلة الغساني ملك الغساسنة.

بعد تأملنا في هذه الشواهد النقدية المصنفة نخرج بخلاصة تحدد لنا أهم خصائص النقد في هذا العصر:

1- أنّ النقد في هذا العصر كان ينصب إمّا على الشعر أو على مكانة الشعراء دون الربط بين القصيدة وقائلها أو المؤثرات التي أثرت فيها.

2- أن القيمة الشعرية في عرف الجاهليين ترتكز على الصياغة الخارجية، والمعاني الجزئية.

3- لم يكن النقد في هذا العصر مبنيا على قواعد فنية، ولا على ذوق منظم ناضج، إنما هو لمحة الخاطر، والبديهة الحاضرة.

وعموما فقد اشتغل عرب الجاهلية بإنشاد الشعر وروايته عن التفكير في إرساء قواعد فنية واضحة لنقده ودراسته، وقد احتاج النقد إلى زمن طويل في الإسلام حتى يؤسس على قواعد ثابتة.